

الدعوة إلى الله

عبد الله بن محمد بن حميد

الحمد لله الذي أرسل رسوله مبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، دعا إلى الله على بصيرة وبحكمة ولين فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، وفتح الله به أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً، أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن الحيرة والضلال إلى طريق الحق والهدى، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فلا شك أن الدعوة إلى توحيد الله، وعبادته، وإرشاد الخلق إلى الصراط السوي هي وظيفة المرسلين وأتباعهم الهداة المصلحين، والدعاة الناصحين، الذين يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويصبرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس وأقبح أثر الناس عليهم، دعوا الناس إلى ما شاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم، ودعواهم إلى ما فيه الخير والسعادة، وحذروهم من السقوط في مهاوي الشرور والشقاء، وحرروا العقول من رق الأهواء والشهوات، وطهروا النفوس من أدران النقائص والرذائل.

ومعلوم أنه ما قام دين من الأديان، ولا انتشر مذهب من المذاهب، ولا ثبت مبدأ من المبادئ إلا بالدعوة، ولا هلكت أمة في الأرض إلا بعد أن أعرضت عن الدعوة، أو قصر عقلاؤها في الأخذ على يد سفهائها، وما تداعت أركان ملة بعد قيامها، ولا درست رسوم طريقة بعد ارتفاع أعلامها إلا بترك الدعوة.

فإذا أهملت الدعوة فشت الضلالة، وشاعت الجهالة، وخربت البلاد وهلك العباد، فنعوذ بالله أن يندرس من هذا القطب عمله وعلمه وأن ينمحي حقيقته ورسمه...

وقد علم بالاضطرار من دين الرسول - صلى الله عليه وسلم -، واتفقت عليه الأمة أن أصل الإسلام وأول ما يؤمر به الخلق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله - كما أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بذلك معاذاً حين بعثه إلى اليمن، فبذلك يصير الكافر مسلماً والعدو ولياً، والمباح دمه وماله معصوم الدم والمال.

وقد قام الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالدعوة إلى الله صابراً محتسباً كما أمره الله بقوله - تعالى

-: **{فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ}** [سورة الحجر الآية ٩٤]، وقوله - تعالى -: **{قُلْ هَذِهِ**

سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي} [سورة يوسف الآية ١٠٨]، فكان يغشى الناس في

مجالسهم في أيام المواسم ويتبعهم في أسواقهم فيتلو عليهم القرآن ويدعوهم إلى الله - عز وجل -

ويقول: **{(من يؤويني ومن ينصرني حتى أبلغ رسالات ربي وله الجنة)}**، فلا يجد أحداً ينصره ولا

يؤويه، ولم يستجب له في أول الأمر إلا الواحد بعد الواحد من كل قبيلة، وكان المستجيب له خائفاً من

عشيرته وقبيلته يؤذى غاية الأذى، وينال منه وهو صابر على ذلك صلى الله عليه وسلم.
وأقام صلوات الله وسلامه عليه على هذا بضع عشرة سنة، قال أبو قيس صرمة بن أبي أنس
الأنصاري - رضي الله عنه -:

ثوى في قريش بضع عشرة حجة*** يذكر لو يلقى صديقا مواتيا
ويعرض في أهل المواسم نفسه*** فلم ير من يؤوي ولم ير داعيا
فلما أتانا أظهر الله دينه*** فأصبح مسرورا بطيبة راضيا

والقرآن الكريم ينزل على الرسول - صلى الله عليه وسلم - مبينا حال الرسل المتقدمين مع أممهم،
وكيف جرى لهم من المحاجاة والخصومات، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى، وكيف نصر الله
حزبه المؤمنين وخذل أعداء الكافرين؛ ليكون له بهم أسوة فتتسلى نفسه ويطيب قلبه وتهون عليه جميع
المصاعب..

**{وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ
لِلْمُؤْمِنِينَ}** [سورة هود الآية ١٢٠]، وقال - تعالى - : **{وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولًا مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا
وَأُودُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيٍّ الْمُرْسَلِينَ}** [سورة الأنعام الآية ٣٤]،
ومعلوم من سنة الله في خلقه أن الحق يتصارع مع الباطل، وأنه لا بد أن يقيض الله للحق أعواناً
يدافعون عنه ويكتب لهم الغلبة والفوز مهما كان للباطل من صولة.

كما أن من أعظم أسباب ظهور الإيمان والدين وبيان حقيقة أنبياء المرسلين، ظهور المعارضين لهم من
أهل الإفك المبين كما قال - تعالى - : **{وَكذلكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي
بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَّهُمْ وَمَا يُفْتَرُونَ} * وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ
أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ}** [سورة الأنعام الآية ١١٢].

وذلك أن الحق إذا جحد وعرض بالشبهات أقام الله - تعالى - على يد من يشاء من عباده مما يحق
به الحق ويبطل به الباطل من الآيات والبيانات بما يظهره من أدلة الحق وبراهينه الواضحة وفساد ما
عارضه من الحجج الداحضة.

فبالدعوة إلى الله يتبين الهدى من الضلال، والصدق من المحال، والغبي من الرشاد، والصلاح من
الفساد، والخطأ من السداد.

ذلك أن الدين الحق كلما نظر فيه الناظر، وناظر عنه المناظر ظهرت له البراهين وقوي به اليقين،
وازداد به إيمان المؤمنين، وأشرق نوره في صدور العالمين، والباطل إذا جادل عنه المجادل ورام أن
يقيم عوده - المائل - أقام الله - تبارك وتعالى - من يقذف بالحق على الباطل فيدمغه، فإذا هو زاهق،
وبيين أن صاحبه الأحمق كاذب مائق، وظهر فيه من القبح والفساد والتناقض ما يظهر به لعموم
الرجال أن أهله من أهل الضلال، حتى يظهر به من الفساد ما لم يكن يعرفه أكثر العباد، وينتبه بذلك
من كان غافلاً من سنة الرقاد ممن، لا يميز الغبي من الرشاد.

وكان الخاصة من الصحابة متكاتفين في نشر الدعوة وتبليغ الرسالة ممتثلين قول الرسول - صلى الله عليه وسلم -: **((بلغوا عني ولو آية))**^١ ، وقوله - صلى الله عليه وسلم -: **((البلغ الشاهد منكم الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع))**^٢.

قال البغوي: "والأمر عام في حق أهل زمانه وما جاء بعدهم، ولا وصول إلى من بعدهم إلا بالتبليغ". فألقوا إلى من بعدهم ما تلقوه من مشكاة النبوة خالصاً صافياً قائلين: هذا عهد نبينا إلينا وقد عهدنا إليكم، وهذه وصية ربنا وفرضه علينا وهي وصيته وفرضه عليكم.

أسلوب الدعوة وما يجب أن يكون عليه الداعي:

وينبغي للداعي أن يكون قوله للناس ليناً ووجهه منبسطاً طلقاً، فإن تلبين القول مما يكسر سورة عناد العتاة، ويلين عريكة الطغاة.

فالداعي أياً كانت منزلته، وأياً كان عقله وعلمه ليس بأفضل من موسى - وهارون، ومن وجهت إليه الدعوة ليس بأخبث من فرعون، وقد أمرهما الله باللين معه في قوله: **{فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى}** [سورة طه الآية ٤٤]، وقال في موضع آخر: **{هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَى}** [سورة النازعات الآية ١٨ - ١٩].

ويقول الرب تبارك وتعالى في حق سيد المرسلين: **{وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ}** [سورة آل عمران الآية ١٥٩]، أي لو كنت خشناً جافياً في معاملتهم لتفرقوا عنك ونفروا منك ولم يسكنوا إليك، ولم يتم أمرك من هدايتهم وإرشادهم إلى الصراط السوي.

ذلك أن المقصود من الدعوة إلى الله تبليغ شرائع الله إلى الخلق، ولا يتم ذلك إلا إذا مالت القلوب إلى الداعي، وسكنت نفوسهم لديه، وذلك إنما يكون إذا كان الداعي رحيماً كريماً، يتجاوز عن ذنب المسيء ويعفو عن زلاته، ويخصه بوجوه البر والمكرمة والشفقة.

كما ينبغي للداعي أن لا يعنف على أحد أو يعلن له بالفضيحة ويشهر باسمه على رعوس الملائم فإن ذلك أبلغ في قبول الدعوة وأحرى إلى الاستجابة والانصياع.

* * *

^١ رواه البخاري (٣٤٦١)، والترمذي (٢٦٦٩)، وأحمد بن حنبل (١٥٩/٢)، والدارمي في المقدمة (٥٤٢).

^٢ رواه البخاري (١٠٥)، ومسلم (١٦٧٩)، وأحمد (٣٧/٥).

نماذج من دعوة الرسول:

لقد كان النبي - صلى الله عليه وسلم - لا يواجه أحداً بما يكرهه، وكان إذا بلغه عن أحد من أصحابه شيئاً يقول: **((ما بال أقوام يقولون كذا وكذا؟ وما بال رجال يفعلون كذا))**^٣، ولا يعينهم خشية أن يحصل لهم خجل أو استحياء بالتعيين بين الناس ويكفيهم ذلك في النهي.

أخرج الإمام أحمد في مسنده بإسناد جيد: عن أبي أمامة - رضي الله عنه -: أن غلاماً شاباً أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: يا رسول الله ائذن لي في الزنى فصاح الناس به، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - ادن، فدنا حتى جلس بين يديه فقال: أتعبه لأمك؟ قال: لا - جعلني الله فداك، قال: كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم، أتعبه لابنتك؟ قال: لا جعلني الله فداك، قال: كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم، أتعبه لأختك؟ - وزاد ابن عوف أحد رواة الحديث - أنه ذكر العمّة والخالة وهو يقول في ذلك: لا - جعلني الله فداك، وهو - صلى الله عليه وسلم - يقول كذلك الناس لا يحبونه، فوضع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يده على صدره وقال: **((اللهم طهر قلبه، واغفر ذنبه وحصن فرجه، فلم يكن شيء أبغض منه إليه))**^٤.

قال شيخ الإسلام: وينبغي أن يكون الداعي حليماً صبوراً على الأذى، فإن لم يحلم ويصبر كان ما يفسد أكثر مما يصلح كما قال لقمان لابنه: **{وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}** [سورة لقمان الآية ١٧].

ولهذا أمر الله الرسل وهم أئمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالصبر، كقوله لخاتم الرسل - صلى الله عليه وسلم -: **{وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ}** [سورة المدثر الآية ٧]، فقرن الصبر ببدء تبليغ الرسالة، فإن أول ما أنزلت عليه سورة المدثر بعد أن أنزلت عليه اقرأ التي بها نبئ فقال: **{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبِّكَ فَكْبِّرْ * وَثِيَابِكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمَنَّ أَنْ تَمُنَّ تَسْتَكْتِرْ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ}** [سورة المدثر الآية ١ - ٦].

فافتتح آيات الإرسال إلى الخلق بالأمر بالندارة وختمها بالصبر، ونفس الإنذار أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، فعلم أنه يجب بعد ذلك الصبر وقال: **{وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْرُجْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا}** [سورة المزمل الآية ١٠]، **{وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ}** [سورة النحل الآية ١٢٧]، وقال: **{فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ}** [سورة الأحقاف الآية ٣٥]، وفي قوله تعالى: **{ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}** [سورة النحل الآية ١٢٥]، أي: ادع إلى سبيل ربك بالمقالة المحكمة الصحيحة، وهو الدليل الموضح للحق المزيج للشبهة، والموعظة الحسنة، أي: العبر اللطيفة، والوقائع المخيفة ليحذروا بأسه تعالى، وجادلهم بالتي هي أحسن: أي: جادل معانديهم بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين وحسن الخطاب من غير عنف، فإن

^٣ صحيح البخاري النكاح (٥٠٦٣)، صحيح مسلم النكاح (١٤٠١)، سنن النسائي النكاح (٣٢١٧)، مسند أحمد بن حنبل (٢٨٥/٣).

^٤ مسند أحمد بن حنبل (٢٥٧/٥).

ذلك أبلغ في تسكين لهبهم، وفي الآية الحث على الإنصاف في المناظرة واتباع الحق، والرفق والمداراة على وجه يظهر منه أن القصد إثبات الحق وإزهاق الباطل، وأن لا غرض للداعي سواه.

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى - على هذه الآية: ذكر سبحانه مراتب الدعوة وجعلها ثلاثة أقسام بحسب حال المدعو، فإنه إما أن يكون طالباً للحق محباً له مؤثراً له على غيره إذا عرفه، فهذا يدعي بالحكمة ولا يحتاج إلى موعظة وجدال، وإما أن يكون مشتغلاً بصد الحق لكن لو عرفه أثره واتبعه، فهذا يحتاج إلى الموعظة بالترغيب والترهيب، وإما أن يكون معانداً معارضاً، فهذا يجادل بالتّي هي أحسن، فإن رجع وإلا انتقل معه إلى الجدل إن أمكن.

قال بعضهم: ينبغي للداعي أن يكون حديثه مع العامة في حال مخالطته ومجالسته لهم في بيان الواجبات والمحرمات ونوافل الطاعات، وذكر الثواب والعقاب على الإحسان والإساءة، ويكون كلامه معهم بعبارة قريبة واضحة يعرفونها ويفهمونها، ويزيد بياناً للأمور التي يعلم أنهم ملابسون لها، كما كان حال الرسل مع أممهم، فإنهم بعد دعوتهم قومهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له كانوا يعالجون الأمراض الاجتماعية الفاشية في أممهم، فنرى نوحاً وهوداً وصالحاً وإبراهيم يهتمون كثيراً بالتوحيد والقضاء على الشرك بشتى الوسائل؛ لأن الوثنية كان متسلطة على عقول قومهم، ونرى لوطاً عليه السلام جعل همه في القضاء على الفاحشة اللواطية لافتتان القوم بها وفشوها عندهم حتى ألفتها الناس وأصبح التنزه منها معدوماً بينهم، وذلك منتهى الانحطاط والانحلال الخلقي، وترى شعيباً عليه السلام بعد دعوة قومه إلى التوحيد ينهاهم عن نقص الكيل والوزن، ويأمرهم بإيفائها لانتشار الغش بينهم، وهكذا بقية الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وجوب تبليغ الدعوة والقيام بها:

جاءت الآيات الكثيرة والأحاديث الشهيرة بالحث على الدعوة إلى الله، وبيان وجوبها، وما للداعي فيها من الأجر، والآيات القرآنية الدالة على الدعوة أكثر من آيات الصوم والحج - الذين هما ركنان من أركان الإسلام الخمسة. فالدعوة إلى الله - من أعظم واجبات الشريعة المطهرة، وأصل عظيم من أصولها بها يكمل نظام الشريعة ويرتفع شأنها، والله - سبحانه وتعالى -

جعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرقا بين المؤمنين والمنافقين كما في قوله - تعالى -:

{الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ} [سورة التوبة الآية ٦٧]، ثم قال: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [سورة التوبة الآية ٧١]، فدل على أن أخص أوصاف المؤمن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ورأسها الدعوة إلى الإسلام.

وقد كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجباً في الأمم المتقدمة، كما في قوله - تعالى -: {لَعْنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنِ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [سورة المائدة الآية ٧٨ - ٧٩]، أي: لا ينهى

بعضهم بعضاً عن ارتكاب المآثم والمحارم، ثم ذمهم على ذلك ليحذر من ارتكاب مثل الذين ارتكبوه - فقال: **{لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}** [سورة المائدة الآية ٧٩] مؤكداً بلام القسم؛ تقبيحاً لصفاتهم وتحذيراً من سوء فعلهم، وقوله - سبحانه - في صفة نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - : **{يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ}** [سورة الأعراف الآية ١٥٧].

هو بيان لكمال رسالته، فإنه - صلى الله عليه وسلم - هو الذي أمر الله على لسانه بكل معروف ونهي عن كل منكر، وأحل كل طيب وحرم كل خبيث، وكذلك وصف الأمة بما وصف به نبيها حيث قال: **{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}** [سورة آل عمران الآية ١١٠]، قال أبو هريرة- رضي الله عنه -: "كنتم خير الناس للناس، تأتون بهم في القيود والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة".

فبين - سبحانه - أن هذه الأمة خير الأمم للناس فهم أنفعهم لهم، وأعظمهم إحساناً إليهم؛ لأنهم كملوا كل خير ونفع للناس بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، فهذه الخيرية لا تثبت لهذه الأمة إلا إذا حافظت على هذه الأصول الثلاثة، فإذا تركتها لم تكن لها هذه المزية.

وقد أكد الأمر بهذه الفريضة في آيات كثيرة بما لم يعرف له نظير في الكتب السابقة، وقدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله في الذكر مع أن الإيمان مقدم على كل الطاعات؛ لأنهما سياج الإيمان وحفاظه، فكان تقديمها في الذكر موافقاً للمعهود عند الناس في جعل سياج كل شيء مقدماً عليه، قال - تعالى - : **{وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}** [سورة آل عمران الآية ١٠٤]، ففي الآية دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن قوله - تعالى - (ولتكن): أمر وظاهر الأمر الإيجاب، وفيها بيان أن الفلاح منوط به إذ حصر، قال سبحانه: **{وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}**، وقال - تعالى - : **{وَالْعَصْرُ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ}** [سورة العصر].

فحكم الرب - تبارك وتعالى - بالخسارة على جميع الناس إلا من كان أتياً بهذه الأشياء الأربعة وهي: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

فدل ذلك على أن النجاة معلقة بمجموع هذه الأمور، وأنه كما يلزم المكلف تحصيل ما يخص نفسه، فكذلك يلزمه في غيره أمور منها: الدعوة إلى الدين، والنصيحة للمسلمين.

قال ابن القيم: وبيان ذلك أن المراتب أربعة وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله: إحداهما: معرفة الحق.

الثانية: عمله به.

الثالثة: تعليمه من لا يحسنه.

الرابعة: صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه.

فذكر - تعالى - المراتب الأربعة في هذه السورة وأقسم - سبحانه - في هذه السورة بالعصر، إن كل أحد في خسر إلا الذين آمنوا: وهم:

- الذين عرفوا الحق وصدقوا به.

- وعملوا الصالحات، وهم: الذين عملوا بما علموه من الحق.

- وتواصوا بالحق: وصى به بعضهم بعضاً تعليماً وإرشاداً.

- وتواصوا بالصبر: صبروا على الحق ووصى بعضهم بعضاً بالصبر عليه والثبات.

فإن الكمال أن يكون الشخص كاملاً في نفسه مكملاً لغيره، وكماله بإصلاح قوته - العلمية والعملية: فصلاح القوة العلمية: بالإيمان، وصلاح القوة العملية: بعمل الصالحات، وتكميله غيره بتعليمه إياه وصبره عليه، وتوصيته بالصبر على العلم والعمل.

وقد رغب الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - أمته إلى الهدى والدلالة على الخير والنصح للمسلمين كما في صحيح مسلم، عن أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري البديري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ((من دل على خير فله مثل أجر فاعله)).^٥

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: ((من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص من آثامهم شيئاً)).^٦

وفي الترمذي عن: بلال بن الحارث: أنه قال: ((من أحيا سنة من سنتي قد أميتت بعدي فإن له من الأجر مثل من عمل بها من الناس لا ينقص ذلك من أجورهم)).^٧

أيها الأخوة الكرام والعلماء الأفاضل: ما مدح الله أهل العلم بما مدحهم به إلا لأنهم ورثة الأنبياء، يبلغون الشرائع للناس ويوضحون طرق الفلاح والنجاح وأسباب السعادة والعزة في هذه الدار **{وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ}** [سورة المنافقون الآية ٨].

أيها العلماء: لقد علمتم ما قال الله في ذم من لم يقم بواجبه، ولم يؤد ما عليه لدينه وأمته من الدعوة والإرشاد والعظة والتذكير والإنذار بسوء العاقبة، كما في قوله - تعالى - : **{وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ}** [سورة آل عمران الآية ١٨٧]، وقال - تعالى - : **{إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ النَّاعُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}** [سورة البقرة الآية ١٥٩ - ١٦٠].

^٥ صحيح مسلم الإمامة (١٨٩٣)، سنن الترمذي العلم (٢٦٧١)، سنن أبو داود الأدب (٥١٢٩)، مسند أحمد بن حنبل (١٢٠/٤).

^٦ صحيح مسلم، العلم (٢٦٧٤)، سنن الترمذي، العلم (٢٦٧٤)، سنن أبو داود، السنة (٤٦٠٩)، مسند أحمد بن حنبل (٣٩٧/٢)، سنن الدارمي، المقدمة (٥١٣).

^٧ سنن الترمذي، العلم (٢٦٧٧)، سنن ابن ماجه، المقدمة (٢١٠).

فإذا هم فعلوا ذلك كثر في الأمة الخير، وندر فيها وقوع الشر، وائتلفت قلوب أهلها، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، وسعدوا في دنياهم وآخرتهم، ولن يتم ذلك إلا إذا أعد أهلها للأمر عدته، وكمّلوا أنفسهم بالمعارف والعلوم التي تحتاج إليها الأمم، التي تبغي السعادة والرفق وتخلقوا بفاضل الأخلاق وحميد الصفات، حتى يكونوا مثلاً علياً تحتذى.

هذا وأسأل الله لنا ولكم الإعانة والتوفيق والدعوة إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يثبتنا وإياكم على الحق إلى أن نلقاه.

* * *

وَلِلّٰهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا

المصدر: مجلة البحوث الإسلامية.